"الداخل" الفلسطيني: سؤال الانفصال والالتحام مع لحظة غزة

حنين زعبي، فلسطين

لا نستطيع بعد الإبادة فهم الداخل ومعضلاته عبر الأسئلة القديمة حتى لو تغيرت إجاباتها، وذلك لأننا لسنا بصدد واقع مختلف فقط، بل نحن بصدد تفكير مختلف أيضاً، فلحظة غزة ليست لحظة كسر في الواقع فقط، وإنما هي أيضاً لحظة كسر معرفي. وبالتالي، علينا أن نغير الأسئلة والمقاربات لتلائم مداراً سياسياً وفكرياً مختلفاً. سؤال المرحلة إذن، هو سؤال لحظة عالمية، هي "لحظة غزة"، والسؤال الذي ننطلق به إلى الأسئلة الأخرى هو سؤال الالتحام أو الانفصال عن هذه اللحظة التي تُشكِّل حالة سياسية وفكرية مختلفة. إن "لحظة غزة" ليست نظاماً جديداً بعد، لكنها بزعزعتها للمفاهيم والتصورات والقناعات والفرضيات السابقة بشكل غير معهود، إنما تؤكد الحاجة إلى مفاهيم ومعانٍ جديدة، ولا تكشف بالضرورة عن خطأ ما مضى، بل عن انتهاء صلاحيته. كما أن لحظة غزة تحدِّد كلفة أخلاقية وسياسية أكبر في حالة الإصرار على التمسك بالسرديات القديمة لفهم اللحظة في حين لم تتشكل بعد السرديات "الجديدة". الإبادة ضمن هذا التصور، ليست مجرد كارثة نريد أن ننجو منها، بل هي لحظة تأسيس لعلاقة جديدة بين الذوات السياسية وواقعها. الإبادة هي وضوح لحقيقة يفرض علينا علاقة مختلفة مع واقعنا كذوات فاعلة فيه.

ولذا، فإن فاعلية الداخل، كما هي فاعلية "العالم"، وفهمنا للداخل، كما هو فهمنا للعالم، إنما يُقاس بالتقاط هذه اللحظة، والاختيار بين الوفاء لها أو إجهاضها. لا تترك اللحظة إمكانية لمجرد قرارات خاطئة، فالقرارات الخاطئة هي إجهاض لإمكانيات اللحظة، ومن هنا تنبع كلفتها الأخلاقية والسياسية المرتفعة. تلك الإمكانيات لا تنبع فقط من إرادات الذوات السياسية، بل تنطلق بالأساس من "الحقيقة" التي أعادتنا الإبادة إليها. وليست الحقيقة كتأويل فقط، وإنما أيضاً "الحقيقة" التي تتجسد في واقعنا المادي وفي شروط فعلنا السياسي. وبناء على ذلك، قد لا يكون مطلوباً من الذوات السياسية أكثر من ألا تقوم بإنكار تلك الحقائق التي تشكل واقعها، وألا تتنصَّل منها عندما تحدد لنفسها مجال فاعليتها السياسية وشكله.

الإمساك باللحظة: فلسطين كبنية شعور وإدراك عالمية تتزعزع

ليست الإبادة "مجرد" حدث يغيِّر المعقول، بل إنها حدث معرفي يُغيِّر فهمنا للمعقول. وبهذا المعنى، فإنها تغير من فهمنا لحدود الممكن في الخير وفي الصمود، وفي الشر. كما تعيد الإبادة صياغة فهمنا لمعنى "السياسة"

كمساحة نبنيها ليس بين فهمنا للواقع وقبوله فحسب، وإنما أيضاً كمساحة نبنيها بين فهمنا لشروط الواقع وفهمنا لشروط تغييره. الإبادة تكسر حتى فهمنا لأنفسنا، إذ هي ليست فقط الحاضر الذي يُفهم عبر الماضي، بل هي أيضاً الماضي الذي يفهم عبر الحاضر. إن لحظات الكسر والزعزعة هذه التي تغير التفكير لا بدَّ وأنها تغيِّرنا أيضاً. "لا شيء سوف يعود كما كان" ليست جملة بلاغية نقولها لكي نؤكد أننا لسنا حمقى، بل هي تجسيد لامتحان كنا نتمنى تجنبه وأصبح تجنبه يحمل تكلفة لا يمكن لصاحب قضية أن يدفعها. فما يخرق العقل يعيد تشكيله، وما يخترق وجداننا يعيد تشكيلنا، وما يستبيح مركز يقيننا الإنساني، عليه أن يجعلنا نعيد مساءلة رهاناتنا القديمة.

وبينما لا زالت التقارير الدولية تكشف عن استهداف المسيِّرات رؤوس الأطفال في غزة وهم نيام أو يحملون الماء أو ينظرون إلى السماء، فإن تلك ليست مجرد صور جديدة للشر تتغلغل في خلفية إدراكنا للعالم أو للممكن، بل تلك صور تضعنا أمام سؤال التطبيع مع عالم يستوعب ذلك ويمضي. إن هذه لحظة تاريخية تجعلنا نقف أمام سؤال الممكن السياسي والأخلاقي، الذي لا يعود السؤال فيه: "كيف نصف الجريمة؟" بل "كيف نواصل التفكير بأدوات صيغت في عالم كانت هذه الجريمة تبدو فيه مستحيلة؟" و"كيف نواصل الحياة بعده هذه الجريمة في عالم يطبِّع معها؟" وبهذا المعنى، لا تدعونا غزة إلى توسيع دائرة الإدانة، بل إلى إعادة النظر في رهاناتنا السياسية والنظرية، لأن الإصرار عليها يعيد حجب ما يحاول أطفال غزة وشهداؤها قوله لنا.

في مقالها "غزة كحدث عالمي (Gaza as World Event)"[1] تقول نانسي فريزر إن غزة كشفت أزمة عميقة في النظام الأخلاقي والسياسي الذي هيمن على الغرب منذ سبعينيات القرن العشرين، أزمة انعكست عبر اهتزاز مكانة أوشفيتز كرمز مؤسس للنظام الأخلاقي الغربي بعد الحرب. بمعنى أن "الغرب" بدأ، وفق فريزر، يتراجع عن المكانة التي نسبها لأوشفيتز، أي أن الموقع الرمزي الذي احتلته المحرقة النازية في تشكيل الضمير الغربي لم يعد يعمل بالطريقة نفسها. وهذا يعني أن غزة كشفت أزمة البنية الأخلاقية التي جعلت أوشفيتز المرجع الأعلى لتعريف الشر، ليس لأنها تدخل في منافسة رمزية مع ضحايا المحرقة، وإنما لأنها تكشف حدود هذا النظام الأخلاقي ليس فقط عندما يتعلق الأمر بالفلسطينيين وحقوقهم، بل عندما يتعلق الأمر أيضاً بشكل الغرب نفسه ومصيره السياسي والأخلاقي. بهذا لا تعطي فريزر المحرقة مكانة أخلاقية ورمزية أكبر، بل تحلل الموقع الرمزي الذي احتله أوشفيتز في المخيال الأخلاقي الغربي، وتحلل اهتزاز تلك المكانة وزعزعتها التي أحدثتها الإبادة.

تجسِّد فريزر وآخرون كيفية إعادة تشكيل الأحداث الكبرى العالم عن طريق إعادة تعريف المفاهيم الكبرى التي تشكل فهمنا للعالم، وإعادة فتح الأسئلة التي ظننا أننا حسمناها، وإعادة مساءلة الأفكار التي لم نعتد على مساءلتها. وهي تفعل ذلك كونها تكشف الكلفة الحقيقية للأفكار التي اعتدنا العيش داخلها، الكلفة الحقيقية لما ظننا أننا نستطيع قبوله. فالأسئلة الجذرية لا تظهر عندما تنجح المسلمات في إخفاء أثمانها، بل عندما تصبح تلك الأثمان كبيرة إلى الحدِّ الذي لا يعود ممكناً تجاهلها.

تقع "فكرة إسرائيل"، في قلب النظام الأخلاقي والسياسي الذي شكَّل العالم الغربي، بشكل خاص بعد الحرب العالمية

الثانية، بينما تشكِّل لحظة غزة، اللحظة التي توضع بها "فكرة إسرائيل" موضع مساءلة ومراجعة عالمية، كجزء من عملية إدراك للأثمان السياسية والأخلاقية الباهظة المرافقة لتحقق هذه الفكرة كواقع سياسي على الأرض. وبذا، فإن الكسر المعرفي الذي تشكله الإبادة يتمثل في القدرة على مساءلة ومراجعة "إسرائيل" كفكرة من قبل أوساط مرموقة وإن لم تكن مهيمنة. هذه المراجعة لا ترتبط بـ"إسرائيل" فقط، إنما هي أيضاً مساءلة للنظام الأخلاقي والسياسي الذي تشكَّل بعد الحرب العالمية الثانية. لقد جعل هذا النظام من "إسرائيل" إحدى ركائزه الأساسية التي يعاد التفكير فيها.

إن الإجابات على مساءلة هذه "الفكرة"، التي تقع في قلب السؤال الأخلاقي الحالي الذي يواجهه العالم (الغربي تحديداً)، هي ما سيعيد صياغة المستقبل. وفي سياق هذه التحولات، لم تعد الصهيونية تناقَش فقط بوصفها "مشروعاً قومياً" يهودياً أو تجربة دولة، بل بوصفها إحدى أكثر تجليات الحداثة الاستعمارية الغربية كثافة وخطورة. فالأسئلة التي لم تكن تثار تجاه "إسرائيل"، أصبحت تثار، إذ خرجت الدولة عن قائمة الأسئلة الطبيعية والسيناريوهات الطبيعية التي تثار عادة تجاه الدول. لم تعد فلسطين إذن، موضوعاً يتعلق بحقوق الفلسطينيين وحسب، بل أصبحت كذلك سؤالاً حول إمكانية استمرار النظام الأخلاقي والسياسي الذي يحكم العالم، والذي يحكم الغرب نفسه، و"أصبح الحديث عن حقوق الفلسطينيين جزءاً من برنامج الديمقراطيين السياسي والأخلاقي. صار الصمت على غزة سؤالاً انتخابياً"، كما يقول يحيى بركات.[2] هذا هو معنى التحول، إنه زعزعة مفاهيمية عميقة، لا تحدث لدوافع أخلاقية فقط، بل لدوافع لامعقولية الاستمرار ولاإنسانيته وفق تصورات البشر عن "إنسانيتهم".

إن حضور فلسطين في الأغاني والملاعب والجامعات هو بنية شعور عالمية تتغير، ولا ينطلق مفهوم التحولات المتعلق بالتغير هذا من موازين القوى، لكنه يحمل طاقة نضال جاهزة لأن تؤدي إليه. إن هذا الحضور يجسد بنية شعور إدراكية، وهو الشعور الذي يحمل أكثر من مجرَّد انفعال فردي، ويحمل إدراكاً جماعياً للعالم حولنا، إدراكاً لم يجسَّد بعد بلغة وتحليل مجرد، كامل ومبلور تماماً. تتغير بنية الشعور، وفق رايموند ويليامز،[3] في لحظات تحول تاريخية كبرى. وهذه البنية، في حالتنا، لا تعني مجرد تأييد أكبر لفلسطين، بل تعني تحولاً في آفاق إدراك ما يعنيه شعور تأييد فلسطين. وهو تحول فيما يمكن أن يتضمنه تأييد فلسطين، تحول في حدود طيف المشاعر لدى من يؤيد فلسطين، تحول فيما يمكن أن يفعله من يتضامن مع فلسطين. ولهذا، تتغير حسابات الأثمان والتضحية لدى العالم الذي يشعر أن فلسطين هي سؤال العالم.

تعيد غزة، ما استدق منها وما عظم، ترتيب حساسيات العالم. قد يبقى الواقع على حاله زمناً طويلاً، فيما تكون شروط استمراره قد بدأت تتآكل بصمت. ومن هنا، نستطيع أن نشعر "بالتحولات"، فهي لا تبدأ عندما تسقط السياسات وتنهار، بل عندما يحتاج استمرارها إلى جهد تبريري متزايد، لأن العالم الذي كان يمنحها بداهتها، ذهب دون رجعة.

إن هذا الشعور العالمي، وإدراك "بنية الشعور العالمي" الآخذ في التغير، يضع الفلسطيني أمام أسئلة مختلفة هي أسئلة المرحلة. وإن السياقات المحلية المتشرذمة للفلسطينيين، وتعدد صور عنفها وقسوتها، لن تكون مسوِّغاً

للهروب من هذه التحولات. لن يكون باستطاعة الفلسطيني أن يهرب مما فعلته غزة في النفوس وفي العقول. وإذا ما حاولنا في سياقاتنا المحلية وخصوصياتنا أن نفعل، فستكون كلفة ذلك أعلى بكثير مما نتوقع، ولن يكون الفشل كلفتها الوحيدة. العودة إلى السرديات القديمة والخطاب القديم، ومحاولة وصل ما قبل 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 بما بعده وكأن شيئا لم يكن، هو إنكار غير مجدٍ للواقع، وهو عملية إغلاق عقيمة لجرح ينكأ باستمرار. وأما تقديم السرديات القديمة كـ"آلية نجاة" بدل الاعتراف بأنها وصلت إلى أفق مسدود، هو الأفق الذي أنتج 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، وهو الأفق الذي مثَّل جسد غزة المستباح نهايته، فإنه الكارثة التي نعتقد أننا ننجو منها.

كيف نفهم الداخل؟

إن الحديث عن لحظة غزة كلحظة كسر معرفي تعني أننا لا نستطيع أن نفهم أنفسنا دون أن نكسر معادلاتنا القديمة عن فهم أنفسنا. ولذا، لا يعود السؤال: "كيف نفهم الداخل؟" بل: "هل يمكن أصلاً فهم الداخل خارج هذه اللحظة؟" "هل يمكن أصلاً أن نفهم الداخل الفلسطيني دون علاقته باللحظة، ودون سؤال الانهيارات الكامنة أو المفقودة لسردياته القديمة؟" هنا يكمن الادعاء المركزي لهذا المقال، وهو أنه لا يمكن فهم الداخل من خلال الصياغات القديمة التي أنتجها عن نفسه، ومن خلال تكرارها في الحاضر، بل علينا أن نفهمه من خلال الصياغة التي تفرضها اللحظة عليه. لم يعد الفهم ذاتياً أو محلياً، بل أصبح معياراً تُشكِّله لحظة تاريخية تعيد تعريف السياسة والأخلاق في آنٍ معاً. حالة الداخل، إذن، لم يعد فهمها ممكناً من خلال سؤال: "ماذا يقول الداخل عن نفسه؟" أو "كيف يفهم الداخل نفسه؟"، بل أصبح السؤال: "كيف يتموضع الداخل الفلسطيني ضمن لحظة تحوِّل عالمية تتوِّج فلسطين/ غزة كمعيار لهذا التحوُّل؟" وبالتالي: "كيف يواجه الداخل الفلسطيني، دون أن يهرب، لحظة تُشكِّل فيها فلسطين مركزاً ومعياراً وسؤالاً وإجابة؟" لم يعد ممكناً، لا منطقياً ولا سياسياً، فهم الداخل (كما هو الحال في فهم الحالة الفلسطينية) إلا من قلب هذه اللحظة: من قلب ما تحمله من دعوة للمراجعات، ومن قلب ما تكشفه من وضوح لجذور الصراع المتجدد.

الإبادة، استناداً إلى ذلك كلِّه، تتضمن تغيراً في بنية المشاعر التي تعطي للمفاهيم معناها وتحدد مخرجاتها، وهي بهذا تحمل تحوُّلاً في الوظيفة السياسية للمفاهيم حيال فلسطين والفلسطينيين في غزة وفي مختلف أماكن تواجدهم. فمفاهيم مثل البقاء، وحماية الفلسطينيين في الداخل، والفاعلية السياسية، والمشاركة في الحيز الاستعماري "الإسرائيلي"، والمواطنة المنقوصة... لم تعد تشير إلى، كما لم تعد تنتج، ما كانت تشير إليه وما كانت تنتجه قبل الإبادة. وذلك لأن الشروط الموضوعية التي أنتجت حمولتها ومخرجاتها لم تعد هي نفسها، كما أن البنية النفسية والشعورية التي تستقبل تلك المفاهيم لم تعد هي نفسها أيضاً. إما الإصرار على استعمال المفاهيم والمقولات القديمة ذاتها، فستكون له كلفة سياسية وأخلاقية عالية تحتاج إلى حسابات جديدة. وعلى ذلك، فالفاعلية السياسية الأساسية للداخل، كما لغيره من الجغرافيات الفلسطينية كلها، هي "قراءة اللحظة" الراهنة بوصفها لحظة تاريخية وليست مجرد لحظة كارثة تتطلب النجاة وحسب (على أهميتها وكونها الأولوية الفلسطينية القصوى لغزة والغزيين من أبناء الشعب الفلسطيني بشكل خاص)، بل هي لحظة التقاء عوامل خارجة

عن المألوف. وهذه اللحظة، كذلك، تتضمن انفلاتاً من المسار التقليدي للسياسة التي بنينا فيه معادلاتنا وفهمنا، نقطة "تجلٍّ" غير محسوبة فلتت من مصيدة "العقلانية" التي عملت، في أفضل الأحوال، ساعات إضافية بعد انتهاء صلاحيتها. وبهذا المعنى، فإن تاريخية "لحظة غزة" تكمن في استثنائيتها وفي قدرتها على الانحراف من المسارات المعتادة، وليس في كارثيتها، ودون إنكار جانبها الكارثي بكل تأكيد. ولذا، فإن النجاة تكمن داخل اللحظة، أي عبر الالتحام باللحظة، وليس عبر الذعر منها ومن نتائجها متواصلة التداعي. النجاة تكمن في الإمساك باللحظة، والتعلم القاسي منها جرَّاء أثمانها الباهظة على عموم الشعب الفلسطيني، وليست في النجاة منها وحسب.

أما السؤال عن معنى هذه اللحظة، فيتحول في هذه الحالة إلى امتحان وجودي أكبر يتعدَّى النشاط التحليلي والفكري والسياسي. إنه السؤال عما إذا كنا سنفتح مجالاً لهذا التحول لأن يغيِّرنا نحن أيضاً كذوات سياسية، وفيما إذا كنا نرى أنفسنا جزءاً من هذا التحول، وجزءاً من التاريخ الذي تعمل اللحظة على تشكيله من قبلنا ومن قبل فواعلها الآخرين. ولا شك أن التحول في الذوات يستند، قبل كل شيء، إلى إجراء مراجعات سياسية عميقة لسرديات شكَّلت تلك الذوات قبل تاريخ 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023.

عند هذه النقطة يكون سؤال علاقة الداخل بهذه اللحظة التاريخية، هو نفسه سؤال المراجعات السياسية للسرديات القديمة. وفي هذه النقطة المركزية، نورد للاختصار (وكمؤشر من مؤشرات عديدة ليست الموضوع المباشر لهذا المقال بقدر ما هي أحد منطلقاتها، القابلة للنقاش بطبيعة الحال) ورقة موقف أعدها إمطانس شحادة وأصدرها مركز مدى الكرمل في شباط 2024. وقد توصلت الورقة إلى استنتاج يفيد بأن السرديات السياسية للأحزاب العربية فعلت كل شيء كي لا تغيرها اللحظة،[4] وأنه أكثر مما خشيت تلك الأحزاب من "إسرائيل"، فإنها أيضاً خشيت من اللحظة ومن المعاني والسرديات التي يمكن أن تشكلها على أنقاض معانٍ وسرديات قديمة.[5]

لقد قدمت الخطابات السياسية للداخل مقاربات مختلفة تماماً، بل ومناقضة لمقاربات هذه اللحظة التاريخية التحولية، حيث اعتبرت المقالة هذه اللحظة بالمجمل "لحظة كارثية"، ملتقطة صورة الطفل الرضيع في غزة وهو يتفجر، دون أن تلتقط ما كان يمكن أن يطلبه منا لو بقي على قيد الحياة ولم يقضِ ضحية للإبادة، ودون أن تسأل كيف يمكن الخوض في السياسة ما بعد الإبادة (التي لا زالت مستمرة) دون غزة وهي تتموضع في مركز النقاش؟ كيف يمكن أن نفكر في النجاة دون أن نفكر بصورتنا أمام أنفسنا ما بعد "النجاة" (على فرض تحققها)، ودون أن نفكر بأيِّ ذوات سياسية تتشكل فينا عندما تريد أن تنجو من أيِّ تشابه مع غزة بنفس الرغبة التي تريد فيها أن تنجو من "إسرائيل"؟ وأيُّ ذوات سياسية تلك التي تنجو من "إسرائيل" عبر التنصل من غزة، أو على الأقل عبر القفز عن لحظة غزة، التي هي لحظة كل الفلسطينيين؟ تشير هذه المقالة إلى أن أسئلة هذه اللحظة، كلحظة شمولية جذرية تحولية، اختفت من الخطاب السياسي للداخل الحزبي وغير الحزبي ، تاركة الناس لخطاب محكوم ومحتكم لا للنجاة فحسب، بل ولتفكير مذعور، ضيق، غير جذري، وغير شامل للنجاة—أي إنه تفكير لا يشبه اللحظة الجذرية بتاتاً، بل ويتنصل منها في عملية رجوع ولجوء نكوصية إلى سرديات قديمة وتقديمها كخطة إنقاذ. تلك السرديات التي استُنفدت وانتهت صلاحيتها قبل 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 بكثير، لكنها مع ذلك بقيت

قيد الاستعمال، الأمر الذي شكل جزءاً من عملية إنتاج الأفق المسدود الذي حاولت لحظة غزة تفجيره.

وعلى أيِّ حال، يحاجج هذا المقال بأن الخطاب السياسي للداخل الفلسطيني بجميع أشكاله، الحزبي وغير الحزبي الصادر في الأساس من قبل أكاديميين ينشطون في الحيز العام، عمل جاهداً ولا يزال على إجهاض اللحظة كلحظة تحوُّل، وعلى إعادة تأطيرها مذعوراً كـ"لحظة كارثية" لا أكثر. وما خطاب الانتخابات الدائر حالياً (حتى منتصف آب 2026) إلا تجسيد ساطع الوضوح لذلك. قد يعبِّر مصطلح "إجهاض" بشكل دقيق عن هذه الفاعلية السياسية، تحديداً لأن النخبة السياسية التي أنتجته ولا تزال تنتجه لا تنكر اللحظة التاريخية للإبادة، لكنها تنكر تحديداً التزامها حيالها والتحامها معها كلحظة تحولية. بمعنى أنها تستثني ذاتها كجزء من تاريخ يعاد تشكيله من جديد. إن الخطاب السياسي للداخل الفلسطيني غير مرتبك، ولا يخشى الارتباك، بل يخاف الوضوح الذي أنتجته اللحظة. وبالتالي، لم تسمح هذه النخب لمقولة "ما سيكون بعد لحظة 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 ليس هو ما كان قبلها"، بأن تصبح مبدأً ناظماً لإعادة تشكلها ولإعادة بناء خطابها السياسي، ليس لكونها لم تعِ التغيرات، بل لكونها قرأتها ضمن خريطة مفاهيم قديمة، أي لكونها لم تتعامل مع التغييرات وفق اللحظة الجديدة. وبهذا، لم تتعامل الفواعل السياسية مع التصاعد غير المسبوق في الفاشية "الإسرائيلية"، مثلاً، من خلال منظور جديد لمعنى وموقعية "إسرائيل" في العالم.

قد تبقى السرديات القديمة، لكن لن يبقى معناها ووظيفتها السياسية كما هي، فالمواقف القديمة ستصطبغ بدلالات اللحظة الجديدة، الأمر الذي لا تدركه النخب السياسية في الداخل. ففي الداخل يلهث الخطاب السياسي وراء "التأثير" في "إسرائيل" وفي صياغة مصيره، وهذا بحدِّ ذاته ليس خطأ، بل هي مسؤولية السياسة. لكن الخطأ هو في امتناع الداخل عن إعادة صياغة موقعه في واقع إبادي جديد آخذ في التشكل والتكرُّس— الأمر الذي سيفقده، حتماً، قدرته على التأثير مهما كانت رغبته بذلك ومهما صرَّح بذلك. وبهذا المعنى، لا تكمن كلفة "إنكار" هذه اللحظة (بطرق متنوعة) في فقدان فرصة سياسية فحسب، بل في فقدان القدرة على إنتاج موقع قوة داخل الواقع الجديد نفسه.

إن استمرار الخطاب السياسي في الداخل في صياغة تأثيره ودوره ضمن المفهمة القديمة للاندماج–أو الانكفاء عن الحيز "الإسرائيلي" هو ما يجسِّد عدم قدرته على فهم اللحظة والإمساك بها، وهو ما يمثل "مراقبة اللحظة عبر زجاج سميك"، وفق توصيف المخرج السينمائي الفلسطيني يحيى بركات. وبحسب بركات، فإن هذه هي "المفارقة الفلسطينية القاتلة"، مفارقة أن يراقب الفلسطيني ما يجري "من خلف زجاج سميك"، وكأن الزمن توقف، وكأن ما يجري في العالم مجرَّد ضجيج عابر، وكأن غزة لم تفتح في الوعي العالمي باباً لم يُفتح منذ عقود. هذه، دون شك، هي أخطر لحظة يمكن أن يعيشها شعب في التاريخ: لحظة أن يعمل التاريخ لـ"صالحه" ولا يجد من يلتقط اللحظة، لحظة أن يفتح العالم نافذة فيغلق الرسمي الفلسطيني الستائر، لحظة أن يتعلم الشارع الغربي كلمة فلسطين فيصمت الخطاب الرسمي الفلسطيني أو يتلعثم، لحظة أن تدخل فلسطين الانتخابات الأمريكية بينما تغادر السياسة الفلسطينية معناها. المشكلة، إذن، ليست أن العالم لم يسمعنا، فالعالم قد بدأ يسمع بالفعل، لكن المشكلة هي أن من يفترض أن يحول هذا السماع إلى قوة سياسية ما زال يتصرف كأنه يعيش في زمن قديم.[6]

الاعتراف باللحظة كحالة تنصُّل

إن الاعتراف باللحظة معرفياً–الاعتراف بهولها وبتحولاتها العميقة "موضوعياً"، والنأي بالنفس عنها سياسياً وأخلاقياً، أي النأي عن المراجعات الجدية التي تفرضها، هو ما تسميه إلينكا زوبانتشيتش "بالتنصل"[7]. التنصل وفق ألينكا زوبانتشيتش، ليس حالة إنكار كلاسيكية، بل هي حالة سياسية وأخلاقية تُبنى على أساس قطع الالتزام بالحدث الذي يتم الاعتراف به، الأمر الذي ينتج حالة انفصام. فيتم الاعتراف بالحدث وبأثره في الواقع وعلى الواقع، ولكن يتم إنكار أثره علينا، وكأننا لسنا جزءاً من الواقع. وبأكثر من ذلك تشير زوبانوفيتش على أن تأكيد الاعتراف يمكِّن ويسهِّل التنصل! أي أن الذات تقول إنها تعرف ما يجري وليست غافلة عن قيمة اللحظة، وذلك تحديداً الأمر الذي يمكنها من الاستمرار وكأن شيئاً لم يكن. وفق هذا النقاش، فإن ما يهم الذات في هذه اللحظات المزعزعة، ليس أن تلتحم بالتحولات وتتحول معها، بل أن تتأكد من أنها غير مخدوعة، من أنها تعرف ما يجري، وأنها مدركة لخطورة الوضع، ومدركة لثقل اللحظة التاريخية، لكن عند هذا الحد تنتهي مهمتها التاريخية! نحن إذن بصدد معرفة خارج التاريخ، معرفة بلا التزام، نحن بصدد طريقة في المعرفة تمكننا من الاستمرار دون أيِّ مراجعات وتمكننا من التصرف وكأن شيئاً لم يكن.

لا تتحدث زوبانتشيتش عن قطع العلاقة بين البيئة السياسية التي نعمل فيها وبيننا، بوصفه سلوكاً فردياً لمقاومة التغيير، إنما تشير إلى بنية إدراك جمعية تميز العصر الحالي. بنية يصبح فيها الوعي بالتحولات التاريخية الكبرى واسع الانتشار، بينما يظل هذا الوعي منفصلاً عن السياسة وعن الأخلاق، ومنفصلاً عن أيِّ التزام بإعادة ترتيب الرهانات العميقة. تبدو البشرية اليوم أكثر إدراكاً من أيِّ وقت مضى لحدود العالم الذي نعيش فيه ولعمق طغيانه، من الانهيار البيئي، إلى مخاطر التسلح النووي، إلى شعبوية الفاشية وهيجان القوة بلا ضابط. ومع ذلك لم تتحول هذه المعرفة حتى الآن إلى قوة تعيد التفكير بالسياسة وبالمسؤولية البشرية إزاء نفسها وإزاء الطبيعة وإزاء الكون. بكلمات أخرى: يعمل الاعتراف بعمق الأزمات كقوة للاستمرار وكأنه لا أزمات. وهنا تدخل لحظة غزة كلحظة تحول ليس لكونها لحظة تجسد وصول الأزمات، أي وصول طاغوت القوة، التكنولوجيا ورأس المال إلى حدِّ اللامعقولية وعدم القدرة على الاستيعاب، بل لكونها لحظة تحول ممكنة لخروج البشرية من آلية التنصل التي مكنتها من الاستمرار رغم أزماتها.

الداخل والتنصل المتعذِّر

الادعاء الأخير لهذا المقال هو أن الداخل الفلسطيني لا يستطيع، موضوعياً، أن يراقب اللحظة والتحولات "من خلف زجاج سميك"، أي أنه سيفشل في التمسك بالقديم مهما حاول جاهداً. إن مفارقة الداخل تكمن في أن محاولة التنصُّل نفسها ستقود إلى نتيجة معاكسة لما تتوهَّمه: فمن يظن أن "النجاة" تكمن في الابتعاد عن اللحظة وتحولاتها، سيجد نفسه متوغلاً في المصيدة.[8] من يختار "النجاة"، من "خلف زجاج سميك"، سيصل إلى مكان مختلف تماماً عن توقعاته. لا يعود ذلك، بطبيعة الحال، إلى أسباب أخلاقية فحسب، بل إلى شرطين موضوعيين يحكمان اللحظة: الأول يتعلق بطبيعة اللحظة العالمية، والثاني يتعلق بـ"خصوصية الداخل" نفسها.

هذه الخصوصية، التي طالما بدت مصدر امتياز سياسي، ستتحول هذه المرة إلى موقعية ملتزمة بالتحول المنطلق من "خصوصيتها". السبب الأول لعدم إمكانية تنصُّل الداخل الفلسطيني من لحظة غزة يعني أن لا أحد يملك قرار أن يتشكل خارج اللحظة التاريخية التي يعيشها، ذلك أن العالم القديم الذي سبق 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، لا بوصفه مرحلة زمنية مختلفة فحسب، بل بوصفه شبكة من الشروط المادية والمعاني التي كانت تشكل السياسة. إن الذوات السياسية نفسها تتبدَّل ضمن تبدُّل الدلالات حتى لو لم تقرر تلك الذوات أن تختار ذلك، وهي قد لا تدرك عمق التغيير سواء التحمت باللحظة أو اختارت التنصل منها. سوف تتغير الخطابات السياسية ليس لأنها تغيرت بل لأنها أصبحت تعيش في عالم مختلف من الدلالات. وقد تظن الذات السياسية أنها ما زالت تقول الشيء نفسه، بينما تكون مفرداتها قد اكتسبت معنى آخر، وأصبحت تُستقبل داخل بنية شعور مختلفة ضمن عالم أعاد ترتيب أولوياته الأخلاقية والسياسية سواء باتجاه الالتحام مع اللحظة أو باتجاه التنصُّل منها. إن هذه اللحظة لا تترك شيئاً خارجها، لا تترك فعلاً أو فاعلاً دون أن تعيد تشكيله وفق علاقته بها: قد يبقى خطابك كما هو، لكن العالم الذي كان يمنحه معناه قد انتهى.

من هنا تنشأ الفجوة بين السردية كما يتخيل صاحبها أنه يحملها، والسردية كما أصبحت تُفهم وتعمل فعلاً في الواقع. وهذا يعني، فيما يعنيه، أن معايير ومعاني النجاح والفشل سياسياً قد تغيرت، ولم تعد "النجاة" ممكنة في العالم الجديد ضمن أدوات وفهم صيغت لعالم انتهى. ولهذا، تتسع المسافة بين الأحزاب السياسية والناس في أكثر الأوقات التي يحتاج فيها الناس إلى من يفهم ويعبر عن حزنهم وحدادهم وغضبهم ويجسده ضمن بنية شعورية أعمق وأبلغ بكثير من إمكانية اختصارها في "الخوف". الناس يحتاجون، الآن وهنا، إلى من يصوغ بنية شعورية تحمل الإحساس بالخوف والكره والشك والإهانة والغضب والاستياء والنفور والذل... ضمن خطاب سياسي مقنع ومنسجم مع اللحظة التاريخية الكبرى.

أما السبب الثاني لعدم إمكانية تنصُّل "الداخل" الفلسطيني من لحظة غزة، فهو أن "الداخل" لا يقع خارج البنية التي أصبحت موضوع مساءلة عالمية، بل هو جزء منها. ولهذا، فإن "الخصوصية" التي استخدمت طويلاً لتبرير الانفلات من تاريخ وجغرافيا الصراع، ومن مرجعيات وطنية عامة (وإن كانت "متخيلة" كأيٍّ مرجعيات مماثلة في حالات مماثلة) أو من أسئلة ملزمة تعيد ربط المواطنة بجذور الصراع... تنقلب اليوم إلى مسؤولية سياسية، تنطلق من أن علاقة "الداخل" الفلسطيني بـ"إسرائيل" هي نفسها جزء من "البنية الاستعمارية" التي تقع في قلب منطق المحاسبة العالمية. إن تجاهل هذه العلاقة لا يلغيها، كما أن التنصُّل من مساءلتها لا يعفي الداخل من أن يُساءَل من خلالها. فالسؤال الذي تفرضه لحظة غزة ليس إذا كان الداخل يريد أن يكون جزءاً من هذه البنية، بل كيف سيُعرِّف موقعه داخلها بعد أن أصبحت هي نفسها موضوعاً للمحاسبة العالمية.

ومن هنا، سيكون لمحاولة تأمين "نجاة" الداخل عبر التنصل من سؤال علاقته بالصراع (وبالتالي جوهر علاقته بـ"إسرائيل" في لحظة مراجعات ومحاسبات عالمية) تكلفة سياسية وأخلاقية باهظة—التكلفة السياسية التي تعني فيما تعنيه أن هذه النجاة لن تكون ممكنة أصلاً. إن التنصُّل من التحوُّل الخاص، لن "يُنجي" من التحوُّلات

العامة، بل قد يوقعنا في أسوئها. وعلى ذلك كله، لم تعد القضية متمثلة فيما إذا كانت "النجاة" من "إسرائيل" هي القيمة العليا للفاعلية السياسية للداخل الفلسطيني أم لا، بل أصبحت تتمثل في السؤال الأكبر: كيف نفكر سياسياً "بالنجاة" بعد انهيار شروط النجاة التي تحملها السرديات والمعادلات القديمة. أي كيف نفكر سياسياً بالنجاة بعد انهيار فرضيات العمل القديمة... وهذا، بالتأكيد، موضوع لمقال آخر

الإحالات

[1] Nancy Fraser, "Gaza as World Event," *New Left Review*, 158, March-April 2026, accessed 10 August 2026. https://newleftreview.org/issues/ii158/articles/nancy-fraser-gaza-as-world-event.

[2] منشور على صفحة الفيسبوك للمؤلف (Yahya Barakat)، بتاريخ 26 حزيران 2026، شوهد في 10 آب 2026.

https://www.facebook.com/share/p/1EfeAtZHV5/.

[3] Raymond Williams, *Marxism and Literature* (Oxford: Oxford University Press, 1977), chap. 9, "Structures of Feeling," 128–135.

[4] هنالك حاجة لتحليل الخطاب السياسي غير الحزبي، وتحديداً الأكاديمي الذي دخل المشهد السياسي إما عن طريق مبادرات ممولة أجنبياً هدفها رفع نسبة التصويت، وإما عن طريق أكاديميين ينشطون بشكل مكثف منذ بداية هذا العام (2026)، مع اقتراب موعد الانتخابات، في الإدلاء بآرائهم من خلال صفحاتهم على وسائل التواصل الاجتماعي أو من خلال نشرهم مقالات في المواقع الإلكترونية أو مشاركتهم في برامج بودكاست باللغتين العربية والعبرية. هذا الخطاب سيكون هدفاً لورقة يجري العمل على إعدادها ستقدم لـ"مؤتمر فلسطين" في الدوحة.

[5] لا تهدف هذه المقالة إلى إثبات هذا الادعاء أو الخوض فيه، ونورد فيما يلي ملخصاً لورقة موقف تم إصدارها من قبل مركز مدى الكرمل، لكننا ندعي أن تحليلاً لخطاب الأحزاب السياسية ستوصلنا إلى هذه النتيجة. وأقتبس فيما يلي كمؤشر واحد من بين مؤشرات كثيرة، الملخص التالي لورقة موقف أصدرها مركز مدى الكرمل في شباط 2024 للباحث إمطانس شحادة: "تتمحور هذه الورقة حول تعامل الحقل السياسي الفلسطيني، أي الأحزاب والحركات السياسية العربية الأساسية الفاعلة في الداخل، مع الإسقاطات السياسية للحرب على غزة ومع السياسية المنتهجة تجاه المجتمع الفلسطيني عامة والمجتمع داخل الخط الأخضر خاصة، ولا سيما خلال الحرب. بيد أن تعامل الأحزاب العربية مع الواقع الجديد والتحولات كان متواضعاً وخجولاً، ولم يشكل تحدياً للسياسات والممارسات الحكومية، ولم تتعمق الأحزاب العربية في معاني وإسقاطات تلك التحولات. في المجمل، لم تؤدِ الحرب على غزة حتى الآن إلى دفع الأحزاب السياسية لإعادة النظر في طروحها أو استراتيجياتها، أو على الأقل إعادة قراءتها في ضوء الحالة الجديدة التي قد تكون مؤسسة لمرحلة جديدة في العلاقة مع "إسرائيل"، بل إنها استمرت في قراءتها السابقة للواقع السياسي في إسرائيل وفي طرحها السياسي." وعلى الرغم من أن الحديث يدور حول دراسة نشرت قبل أكثر من عامين، إلا أن مؤشرات الواقع لا تشير إلى اختلاف في مجمل الصورة التي تستنتجها الورقة.

[6] بركات، مصدر سبق ذكره.

[7] Alenka Zupancic, *Disavowal* (Cambridge: Polity Press, 2024).

[8] انظر الجدال بين رائف زريق وعمر سعيد وآخرين في صفحاتهم الشخصية على فيسبوك في آب 2026.